

الوطن وامتداد الهوية في رواية " لمن هذه الدمية؟"

للكاتبة تغريد عارف النجار

The Homeland and the Propagation of the Concept of Identity in Taghreed Al Najjar's Whose Doll Is This?

د. ريماء زهير الكردي، د. رافع يحيى

1 جامعة المدينة العالمية - ماليزيا، rimaalkurdi@yahoo.com

2 الكلية العربية للتربية، حيفا، rafia15@hotmail.com

تاريخ التسليم: تاريخ التقييم: تاريخ القبول:

Abstract

This study aims to present about the theme of homeland and identity related to the belonging presented in the novel: "To Whom Is This Doll?" by the author Tagreed Alnajjar. This novel is about a Palestinian family who was exiled by the Zionist gangs who forced them to leave Palestine in 1948, the family faced horror as they left with a great hope of coming back, and how holding to identity through the years of diaspora afterwards turned to be a collective concern passed through generations. This paper studies the theme of identity as an engine of the novel and for every Palestinian family who still dream of coming back home. abstract should not exceed 250 words where reference to the goal of the research, and the most important results reached in two paragraphs.

Keywords: Palestine, identity, culture, alienation, diaspora.

الملخص

تستعرض هذه الدراسة ثيمة الوطن ومدى امتداد الهوية والانتماء في رواية " لمن هذه الدمية؟" للكاتبة تغريد عارف النجار. تناولت الرواية سيرة حياة عائلة دفعتها العصابات الصهيونية إلى مغادرة فلسطين على أمل العودة، لتغدو الهوية همًا جماعيًا تتناقله الأجيال وتسعى لتثبيت ملامح الشخصية الفلسطينية في الشتات بمكونات الهوية وأبعادها المختلفة. تقدم الدراسة هذه بحثًا في ثيمة الهوية كمحرك للرواية وهدفًا لكل عائلة فلسطينية مازالت تتشبث بحلم الرجوع للوطن. الكلمات المفتاحية: فلسطين، الهوية، الثقافة، انتماء، الشتات.

* د. ريماء زهير الكردي: rimaalkurdi@yahoo.com

أهمية البحث

تعد هذه الدراسة الأولى من نوعها لرواية "لمن هذه الدمية"¹، الصادرة عن دار السلوى للدراسات والنشر عام ٢٠١٩، والتي حصدت جائزة اتصالات للعام نفسه كأفضل كتاب لليافعين للفئة من 13 - 18 سنة، وربما لم يوجد دراسات تُعنى بها كونها حديثة الإصدار، ولم يتوّفّر سوى قراءات على منصات التواصل الاجتماعي لملاحظات انطباعية وفي مجملها لم تظهر تلك القراءات عمقاً في التناول أو تقليب الرواية على أوجهها التي تُبيّن جوانبها الفنية، وهذا في عمومها حاصل حالياً فمحدودية الدراسات النقدية عموماً التي يتم رصدها لتناول روايات الفتیان بالدرس شبه معدومة، فأدب الفتیان أو أدب الناشئة يعد فئة جديدة في المشهد النقدي وبالتالي ليس ثمة من تناول المنتج الأدبي الخاص بهذه الفئة من الروايات.

أسئلة البحث

- كيف قدمت الكاتبة تغريد النجار مفهوم الهوية في روايتها؛ لمن هذه الدمية؟
- كيف رصدت الرواية العلاقة بين الفضاء الروائي المتخيل مع الواقع التاريخي لمأساة الشعب الفلسطيني في روايتها؟

منهج البحث

يتتبع هذا البحث المنهج التحليلي الوصفي في دراسة رواية "لمن هذه الدمية؟"، لما لهذا المنهج من قدرة على تحليل وتفسير الظواهر التي يريد البحث تسليط الضوء على جوانبها وتفكيك النص لاستقراءه في ضوء ثيمة الهوية الانتماء التاريخي والوطني واستبطان المعاني المرتبطة بإشكالية الدراسة وهي ثيمة الوطن وامتداد الهوية الفلسطينية، ومن خلال رصد العلاقة التي قدمتها ضمن الفضاء الروائي المتخيل لشخصية الطفل الفلسطيني وكيفيات الحفاظ على الهوية الوطنية والارتباطات التراثية المتعلقة بطفولته وهو المهجر، والأسباب التي تجعل من الإنسان الفلسطيني ومنذ طفولته دؤوباً في سعيه الحثيث لإحياء تراثه ضمن منظومة حياته ومد جسور الانتماء للوطن المسلوب وعلى أكثر من مستوى.

مصطلحات البحث

¹ تغريد عارف النجار، "لمن هذه الدمية؟"، دار السلوى للدراسات والنشر، المملكة الأردنية الهاشمية، طبعة 1. 2019

من المصطلحات التي سيتم توظيفها بوفرة في هذا البحث متعلقة بالوطن والهوية والانتماء، وفي التعاريف اللغوية والاصطلاحية نجد الوطن في معناه اللغوي هو: "المنزلُ تقيم به، وهو موطنُ الإنسان ومحلّه؛ والجمع أوطان. وأوطانُ الغنم والبقر: مَرَابِضُها وأماكنها التي تأوي إليه، وأوطنتُ الأرض ووطنتُها تَوَطَّيْنًا واستَوَطَّيْتُها أي اتخذتها وِطْنًا".² أما الوطن بمعناه الاصطلاحي الخاص هو "البيئة الروحية التي تتجه إليها العواطف الإنسانية القومية. ويتميز الوطن عن الأمة والدولة بعامل وجداني خاص، وهو الارتباط بالأرض وتقدّيسها لاشتمالها على قبور الأجداد".³

الهوية لغويًا مُستقاة من الضمير (هو) والذي يعني الآخر، وتبعًا لذلك فإن مفهوم الهوية ينطلق من ثقافتنا العربية من الآخر إذ الإحساس بالذات في ثقافتنا ينطلق من تحديد هوية الآخر.⁴ وفي اصطلاحها ما تطلق به على الشخص (أو على الموجود المشبّه بالشخص) "إذا ظل ذاتًا واحدة رغم التغيرات التي تطرأ عليه في مختلف أوقات وجوده، ومنه قولنا هوية الأنا، وهوية الفاعل، وتسمى هذه الهوية بالهوية الشخصية...".⁵

يعرّف الجرجاني الهوية بقوله " هو الأمر المتعلّق من حيث امتيازّه عن الأغيار والامتياز هذه بمعنى الخصوصية والاختلاف لا يعني التفاضل، وعلى هذا فانتقاء خصوصية الشيء هو انتقاء لوجوده ونفيه".⁶ وهناك من يذهب إلى أن الهوية هي "منظومة من الخصائص والعناصر المادية والمعنوية المكونة لوجود شيء ما والتي تميزه عن الأشياء الأخرى بصورة عامة على الرغم من وجود عناصر وخصائص متشابهة".⁷ وفي سياق آخر يُنظر إلى الهوية على أنها "عنصر مُثَبَّت، يجمع عناصر الحياة ويلصقها كما يفعل المثبّت مع عناصر اللوحة، فيبقى الألوان ثابتة معًا وتحمل الإضاءة المسلطة عليها".⁸

² ابن منظور، لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف خياط مرعشلي، مجلد 1، ط 1، دار لسان العرب، بيروت 1970، ص 189.

³ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 2، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص 580.

⁴ بديعة خليل الهاشمي، الهوية الوطنية في قصص الأطفال في دولة الإمارات العربية المتحدة، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2014، ص 32.

⁵ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص 531.

⁶ علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان 1403 هـ - 1983 م، ص 95.

⁷ <https://www.politics-dz.com/>

الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية، مفاهيم سياسية: تطور مفهوم الهوية، ج 1.

⁸ <https://newrepublic.com/article/92857/against-identity>, Leon Wieseltier, Against Identity November 27, 1994.

"Identity is a fixative, and it works on the elements of a life the way a fixative works on the elements of a drawing: it holds them together and it helps them to withstand the light."

وفي اللغة، فالمصدر (انتماء) أصله الجذر الثلاثي ن - م - و، أو ن - م - ي، ولم يرد في لسان العرب بمصدره بل بصيغة الفعل انتمى/ ينتمي، بمعنى ينتسب أو يرتفع بالنسب إلى فلان، "وفلان ينمي إلى حسبٍ وينتمي: يرتفع إليه. وفي الحديث: من ادّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه أي انتسب إليهم وصار معروفاً بهم"⁹، وهكذا نجد أن الانتماء في اللغة يقوم على العلاقة الإنسانية أما في المصطلح فالانتماء ليس فقط العلاقة المنطقية بين الفرد والصنف الذي هو أحد أفرادها، بل يُطلق الانتماء في علم الاجتماع "على العلاقة بين الفرد والأشياء التي يملكها...ولا ينبغي ذلك الفرد من أن تكون الأشياء التي يملكها بعيدة عنه أو منتزعة منه، وداخلة في ملك غيره، فإن نسبتها إليه في وقت من الأوقات تجعل المشاركة بينه وبينها دائمة."¹⁰

ملخص الرواية:

تتضمن رواية "لمن هذه الدمية" في فحواها واقعاً تسجيلياً يمتد عبر أربعة أجيال لعائلة فلسطينية من مدينة يافا هاجرت إثر نكبة 1948 واحتلال فلسطين على يد الصهاينة إلى لبنان، وتحديداً بيروت، وتتناول الرواية رحلة هذه الأجيال الزمكانية والصراعات التي عاشتها العائلة في حفاظها على هويتها التي تم محاولة انتزاعها بقصدية انتزاع الأرض من أهل فلسطين واستلاب هويتها الثقافية وبُنائها الاجتماعية كجزء من محاربة الوجود الفلسطيني وكسر إرادة الحياة فيهم على أكثر من مستوى وبمنهجية مدروسة من قبل المحتل الإسرائيلي.

تتناول الرواية محاولة الجدة " ليلي" شراء دمية طلبتها حفيدتها " ندى" منها لميلادها كالتى كانت تملكها هي في طفولتها، وقد كان اسم الدمية " سالي"، وعندما تعرف "أروى" حفيدة ليلي الأخرى شوق جدتها لدمية طفولتها، تأخذ بالبحث عنها حتى تجدها على "موقع" إي بي" على الإنترنت"¹¹، وبعد أن تجد الحفيدة

⁹ ابن منظور، لسان العرب، ص 342

¹⁰ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص 152

¹¹ تغريد النجار، لمن هذه الدمية. ص 37

أروى" دمية جدتها تستعيدها وتقدمها لجدتها في عيد ميلادها وما يتخلل ذلك من بحث مكاني عن الدمية واسترجاع عاطفي وذهنى لكل مراحل الشتات الذي مرت به الجدة ليلي.

"تخبرنا الرواية منذ البداية أن الطفلة "ليلى" تركت دميته "سالي" على إثر العدوان الإسرائيلي على فلسطين ولجوء أسرتها الى لبنان على أمل العودة سريعاً الى بيتها ودميتها. "سالي" لم تكن كبقية الدمى لقد حصلت عليها ليلي من عمها العائد من المملكة المتحدة بعد إنهاء دراسته حاملاً معه العديد من الهدايا لأسرة أخيه فكانت "سالي" من نصيب ليلي. وحينما التقطت الأسرة صورة عائلية مشتركة أصرت ليلي أن تحمل دميته في يدها، فبقيت تلك الصورة دليلاً على وجود "سالي" في حياة ليلي. فهل كانت تلك الدمية للجدّة ليلي؟ هاجرت الطفلة ليلي مع أسرتها الى لبنان تاركة وراءها في حيفا دميته "سالي" التي طرزت هي ببديها الصغيرتين اسم الدمية على ثوبها من الداخل ليحفظ لها حقها بعد محاولة أختها الكبيرة أخذ الدمية منها. عانت الأسر الفلسطينية في المهجر الكثير من الصعاب لينتهي بهم اللجوء الى مختلف دول العالم. أما ليلي فقد انتقلت بعد سنوات مع زوجها إلى الولايات المتحدة لتصبح هناك فيما بعد دكتورة في إحدى الجامعات.

تستعرض الرواية حياة الدكتورة ليلي الأسرية وصادقاتها لنعرف تاريخ الأسرة عبر "فلاش باك" أحياناً، وأحياناً أخرى عبر محادثتها مع حفيدتها "أروى" التي ولدت وعاشت في أمريكا. تظهر "أروى" ووالدتها في الأحداث الجانبية للرواية عبر مشاهد درامية تنتقل فيها أروى من علاقة بشاب أمريكي الى علاقة أخرى بشاب عربي اسمه سعيد الذي يعينها على تخطي بعض الصعاب ومنها تقبل زواج والدتها من "رالف". اعتراض أروى وعدم تقبلها لزواج والدتها انطلق من رفضها فكرة أن يحتل شخص آخر محل والدها الذي توفي قبل أن تعرفه أو تلتقي به رغم تأكيدها المستمر في أنها أمريكية.

يبرز دور أروى في الرواية عبر عرضها على جدتها مساعدتها في البحث عن دمية قديمة هدية لحفيدة ليلي الأخرى "ندى". ندى ذات الأعوام الخمسة طلبت من جدتها أن تكون هدية عيد ميلادها دمية تشبه دمية جدتها ليلي حينما كانت صغيرة. وحينما تعسر على الجدة ليلي الحصول على الدمية في المحلات، اقترحت عليها أروى أن تساعد بالبحث في محلات الأنتيك التي تباع التحف والأدوات الأثرية القديمة. وتبدأ أروى بالبحث عبر موقع "إي باي" Ebay لتجد دمية قديمة تشبه دمية الجدة ليلي معروضة من قبل إحدى محلات الأنتيك. وعند ذهابها إلى المحل تتفاجأ أروى أنها نفس دمية جدتها التي طرزت عليها كلمة "سالي". فتقرر أن تقدم أروى الدمية هدية للجدة في عيد ميلادها.

تقع معظم أحداث الرواية في مدينة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية. وتقدم الرواية تفاصيل كثيرة حول هجرة الفلسطينيين من فلسطين عقب الاحتلال الإسرائيلي وتفاصيل مختلفة لحياة أروى ووالدتها والجدة ليلي حاضرها وماضيها وغيرها من الأحداث اليومية. يتعرف قارئ الرواية على صاحب الدمية منذ بداية أحداث الرواية لتظهر فيما بعد بعض التفاصيل الأخرى المتعلقة بكيفية وصول الدمية إلى أمريكا¹². تسرد الجدة في عدد من فصول الرواية عن طفولتها وتاريخ العائلة في فلسطين وفي الشتات ضمن تقاطعات لأحداث متعددة ومتنوعة ومتشابكة تمتد لما يربو على ستين عامًا حتى الزمن الحال والتعاليقات الحادثة في الصراع لتوثيق الهوية الذاتية والجمعية في آن.

فحوى البحث

يتغيا البحث دراسة الأفكار المطروحة والمضامين التي تتناول ثيمة الهوية الوطنية من خلال تحليل عدد من المحاور التي تقوم عليها الرواية، وفي كل محور ما يعبر عن تجلي صراعات متنوعة وبالمقابل ينطوي على ضرورة التمسك بالهوية والتراث والثقافة الوطنية بالرغم من الشتات والصراعات التي تشد الإنسان الفلسطيني من كل حذب وصوب نحو الذوبان في هويات جديدة عبر مراحل حياته المختلفة، وسبل المقاومة

¹² فاطمة أنور اللواتي، قراءة في رواية: لمن هذه الدمية، دمية وثقافتان الفلسطينية واليهودية. / <https://www.raialyoun.com/>

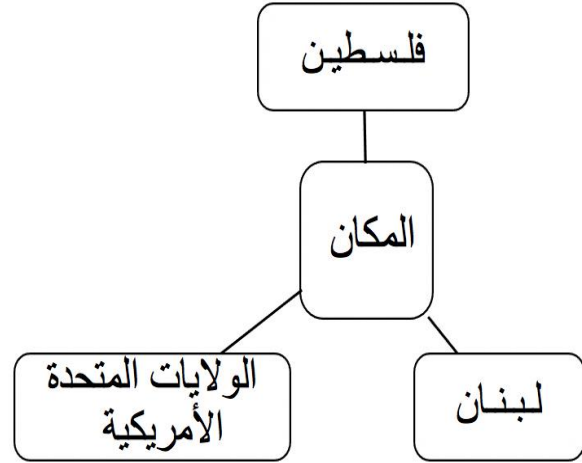
التي خاضتها تلك العائلة كرمز لعوائل فلسطيني الشتات للاستمرار بالحفاظ على الجذور والانتصار على الاغتراب وتعزيز الهوية الوطنية وجدانياً وواقعياً.

يطالعنا الغلاف بحضور واضح لعدد من الدلالات المعبرة عن الهوية الفلسطينية والثقافة المتنوعة بشقيها المادي والمعنوي، وعند تحليل المشهد البصري تطالعنا صورة طفلة تحمل دميها حيث تجلس على الأرجوحة لما للأرجوحة من ارتباط بالطفولة الحرة السعيدة، وبينما تتوسط الطفلة بدميتها لوحة الغلاف يحيط بها عناصر تتمثل ببرج الساعة الموجود في مدينة يافا وهو واحد من الأبراج السبعة التي قام السلطان عبد الحميد الثاني ببنائها في مدن فلسطين ومازال باقياً حتى اليوم هذا الأثر في ساحة الشهداء هناك، بالإضافة إلى ساعة جيب ذهبية كان يستخدمها جيل ما قبل النكبة عام 1984، ووجود ساعتين على غلاف واحد بجانب عدد من العناصر الأخرى يعبر عن مسائل وجودية مرتبطة بالوجود الفلسطيني الذي وإن تم اقتلعه من الجغرافيا ولكنه ضارباً في الزمن، كما يعرض لنا الغلاف مطرقات يدوية بنقوش فلسطينية ومطبوعة من مخطط لخارطة فلسطين التاريخية وقُطْعاً من البرتقال الذي تشتهر فيه مدينة يافا، وفرع لشجرة الصنوبر نستدل لاحقاً من سرد " ليلي " ابنة يافا التي هاجرت منها طفلة أنها كانت شجرة في بيتهم هناك حيث كانت تلعب في فيئها عندما كانت طفلة.

تتوزع الرواية على أبواب، وكل باب مؤشّي بعنوان يأخذنا لكشف جانب من جوانب السيرة التسجيلية للطفلة/ ليلي بعناصرها المتواشجة والتي "تمضي وتتفاعل والشخصيات تتحرك وتكلم وكأنهم يمارسون حياة طبيعية حقيقية، لكن الحدث لا ينطلق عشوائياً، والشخصيات لا تتصرف ارتجالياً أو اعتباطاً، ف وراء كل حركة وسكنة في القصة هدف أو تعبير عن معنى، عن فكرة، عن موضوع..."¹³ تم كل ذلك بتوظيف أساليب سردية متنوعة وكلها أدوات في يد النجّار لتشرع لنا باب النوستالجيا لطفولة الجدة " ليلي " في الوطن حيث مدينة يافا في فلسطين والهوية الأصلية والانتماء القديم المتجدد لكنما الغياب هو البطل الخفي للرواية التي حملت مضامين تستمر النجّار في طرحها على امتداد الأحداث.

¹³ نجيب الكيلاني، أدب الأطفال في ضوء الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 3، 1991. ص 71

يتضمن الإهداء عبارات مكثفة تحمل إيديولوجيا عابرة في الزمن، ومفخخ بعقائدية وطنية أشبه ما تكون بخارطة فكرية للأجيال الممتدة من الأجداد إلى الأحفاد، " إلى الذكريات المحفورة في الصور وفي القلب ... إلى ذكرى أمي... إلى أحفادي... أمل المستقبل...¹⁴



يتوقع المتلقي عند دخول لعالم الرواية من خلال العنوان الاستفهامي " لمن هذه الدمية؟" أن ثمة رحلة بحث طويلة ستمضي به عبر السرد، لكن في تجليات السؤال نكتشف أنه لم يقدم لإيجاد

إجابة بقدر ما هي لتأكيد حق مستلب ممثل بالدمية التي تمثل موتيف مركزي ومعاقل موضوعي فالبحت عنها عبر الأجيال تحتمل تأويلات أهمها فقد الوطن الذي تجلى في حياة الإنسان الفلسطيني وعلى أصعدة عدة، "جذتي سعيدة جداً بعودة دميته، ولكنها حزينة بعض الشيء أيضاً؛ فالدمية جعلتها تتذكر أموراً كثيرة من طفولتها وحياتها في يافا.¹⁵ ومن هذه العبارة المكثفة تتوزع الرواية في صياغة الهوية تثبيتها من خلال عدد من المحاور كالتراث وأصالة الهوية والثقافة، والمكان، والزمان، وشخصية الجدة والشخصيات المحيطة بها وتعالقاتها وتقاطعاتها، كما تظهر الرواية الصراعات في سبيل تعزيز انتماء الأجيال الجديدة والتمسك بالتراث المادي والمعنوي. عبرت الرواية عن واقع تسجيلي يسرد ارتباط الطفل الفلسطيني وعبر الأجيال بالوطن وهويته من خلال أسلوب الاسترجاع وتوظيف عدد من التقنيات الفنية السردية التي يمكن للشخصية أن تعبر عنها من روابط ماضية ومعاصرة ومنها المذكرات والصور والمحاضرات والاجتماعات العائلية والموسيقى وغيرها وكل ما سبق يتمدد في المحاور الآتية:

المحور الأول: المكان

¹⁴ تغريد عارف النجار، " لمن هذه الدمية؟"، صفحة الإهداء.

¹⁵ المصدر السابق، ص 72.

للمكان في هذه الرواية مساحة شاسعة نظراً لأن الصراع الجوهري متعلق بالأرض، ومن هنا ترى أن المكان ينقسم في الرواية على النحو الآتي:

هذه الثلاثية المكانية تمثل أيضاً محطات زمنية في حياة الجدة " ليلي" فلسطين هي الوطن مكانياً، والماضي زمنياً، ومركز طفولة الجدة المسلوقة والمقابلة للهوية المحتلة من الوطن أيضاً، ذلك أن المكان من أشد العناصر ارتباطاً بالنشاط الإنساني الجمعي، إذ لا يمكن تصور مكان منعزل عن ثقافات الإنسان ونشاطه الفكري وتجاربه...¹⁶

يمثل لبنان رمزاً للتهجير ومحطة اللجوء الأولى والأقرب جغرافياً إلى الوطن الأم، بينما تقطن وتعمل "دكتورة في العلوم الإنسانية، مؤلفة لخمسة كتب، ناشطة في مجال حقوق الإنسان".¹⁷ في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تمثل الغربة المكانية والتي تطالعنا الرواية وتستفتح الرواية بذاكرة نوستالجية: "مع أن بوارد الربيع بدأت تطل إلا أنها شعرت ببرد شيكاغو المعهود ينخر في عظمها. كم تشتاق إلى شمس بلادها بعد هذا الشتاء القارس".¹⁸، وبمقارنة تبدو مقتضبة ولكنها تؤثت لكامل العلاقة التي يصرح بها الراوي العليم وهو يقدم للشخصية المتنقلة عبر الزمن وحاملة الرواية، الجدة "ليلي".

تبدو ثمة ألفة ظاهرية مع الأماكن الثلاثة السابقة التي تتحرك فيها "ليلي"، لكن الأماكن الحقيقية هي الأماكن التي تسكن الشخصية، وإليها تنتمي في الوطن الأم، في الوطن المحتل، حيث ثمة واقع تسجيلي للمكان، فتفاصيله محفورة في الذاكرة حد التعايش وبرغم الطفولة المبكرة الظاهرة، كما في التحاق "ليلي" بالمدرسة الابتدائية: "ذهب عاهد وحسني وعوني باتجاه طريق مدرسة العامرية، أنا ومريم فمضينا في الاتجاه المعاكس نحو مدرسة الزهراء".¹⁹ وكذلك يقترن اسم مدينة يافا بذكر تاريخ تسمية "ليلي"، وذكر هويتها الدينية، وهذا الثالوث هو الهوية الأولية للإنسان، اسمه كجزء من التاريخ الشخصي والممتد للعائلة، ومكان الميلاد، والعقيدة التي نشأ عليها وتبناها، ثلاثتهما يجلي الانتماء الأصيل للذات والمكان والإيمان بما يعمق

¹⁶ علي عبد المعطي، قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، ج2، دار المعرفة، الإسكندرية، مصر، د.ت، ص127.

¹⁷ تغريد عارف النجار، " لمن هذه الدمية؟"، ص32.

¹⁸ تغريد عارف النجار، " لمن هذه الدمية؟"، ص5.

¹⁹ المصدر السابق، ص13.

جذور ليلي كذلك: " يبدو أنك وجدتِ إنجيل العائلة القديم، إنه من الأشياء القليلة التي أخذناها معنا عندما خرجنا من يافا. فيه تاريخ عائلتنا منذ القرن التاسع عشر كما ترين."²⁰

للتأكيد على رسوخ الهوية بالمكان في فلسطين تم ذكر عدد من مدن فلسطين عبر امتداد الرواية، مثل القدس ورام الله وحيفا وغزة حيث كان لها ارتباطات بشخصيات أخرى في الرواية، أما يافا مدينة الطفلة/الجدة "ليلى" فالانفصال عنها كان قسرياً وليس اختيارياً، "الخيارات أصبحت محدودة، إما البقاء والموت برصاص العصابات الصهيونية أو ركوب القوارب ومواجهة خطر الغرق في البحر."²¹ يظهر المكان في بلد اللجوء/ لبنان بداية عند شواطئه التي وطأتها عائلة ليلي هرباً من الحرب المعلنة على الفلسطينيين آنذاك كحل مؤقت وليس للبقاء وترك الوطن: " قالت ليلي: يا ابني عندما غادرنا يافا. كنا نظن أننا سنعود بعد أن تهدأ الأوضاع، اعتقدنا أننا سنغيب بضعة شهور في أسوأ الأحوال، لم يرغب أبي بمغادرة يافا أبداً. كيف يرغب أحد في ترك وطنه؟ أبي كان يعشق يافا، فبيتنا الذي يعتز به هناك..."²²

ووفق اشتراطات الحياة الجديدة، فبلد اللجوء لم تكن رحيمة باللاجئين إذ اضطرت الأم للعمل كطباخة عندما عجز الأب وهو المعيل من توفير قوت العائلة بعد أن طال الأمد عليهم دون عودة للوطن، واشتدت الخطوب حولهم، " لقد أصبحت أُمي خادمة، تتحمل الإهانات من بعض العائلات التي تحتقرها، وتزديرها لأنها خادمة ولأنها لاجئة فلسطينية."²³

وعلى الرغم من حصولهم على الجنسية اللبنانية لتدبر أمورهم لكنهم لم يتخلوا عن كينونتهم الأصلية ومرجعيتهم الثقافية كفلسطينيين وكان سبيلهم إلى التقدم في الحياة من خلال العلم الذي هو جزء من ثقافة المجتمع المدني ما قبل النكبة: " رد عمي قائلاً: " سلامة خيركم يا أم عاهد، أحببت أن أرد بعضاً من جميل أخي الكبير ساندني وساهم في تكاليف تعليمي"²⁴، والدرب نفسه تبعته ليلي بالرغم من كل التحديات التي واجهتهم كعائلة لاجئة، وفي بلد اللجوء استمرت الحياة ودرج الأطفال في المدارس، فالعلم منجاة الفلسطيني

²⁰المصدر نفسه، ص 23.

²¹المصدر نفسه، ص 88-89.

²²المصدر نفسه، ص 55.

²³تغريد النجار، لمن هذه الدمية؟ ص121.

²⁴المصدر السابق، 53.

في الشتات وسلاح مُشهر، إذ بعد أن سجل الأب الأطفال في المدرسة وحاول كبيرهم اقتراح العمل بدل الدراسة صرخت الأم في وجهه قائلة: " اسمعوا مني منيح، ما رح يفيدكم غير العلم. حطوها حلقة بوندكم...حتى لو متنا من الجوع بتكملوا تعليمكم...."²⁵

أما المكان الثالث الذي اشتد فيه الصراع على الهوية كان في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث انتقلت "ليلي" مع زوجها كمال في بداية زواجهما والذي وفدها للحصول على شهادة الدكتوراه "فما كان منها إلا أن تقدمت هي الأخرى لجامعة" دي وللحصول على شهادة الماجستير ثم أتبعها بالدكتوراة..."²⁶، وفي مدينة شيكاغو استقر بها المقام أين كانت المواجهات أكبر وأعد خاصة أن ليلي جعلت من استلاب الوطن قضية مركزية في حياتها، فالفقد والتشرد ملمحان من ملامح وجود الفلسطيني، وهناك كان على ليلي أن تأخذ موقف الدفاع اللامحدود عن هويتها وثقافتها لجبلين يمتدان منها، جيل أبنائها وجيل أحفادها، بأقرب ما يكون بصيغة ما ذهب إليه محمود درويش في قوله "وعليك أن تدافع عن حروف اسمك المفككة، كما تدافع القطعة عن جرائها. وعليك ما عليك، أن تدافع عن حق النافذة في النظر إلى العابرين..."²⁷ وفي قاعات الجامعة كانت ليلي تقدّم محاضرات للدفاع عن تاريخها ومستقبل امتدادها، وعندما دعت صديقتها إيمي للحضور فسألتهما الأخيرة عن موضوع المحاضرة، أجابتها ليلي بأن عنوانها: سرقة التراث والهوية الوطنية. كيف نتصدى لها؟"²⁸

وعلى الرغم من استقرار "ليلي" في شيكاغو لأكثر من أربعين عامًا، إلا أنها كانت دائمة الشكوى منها، ففي مطلع الرواية " شعرت ببرد شيكاغو المعهود ينخر في عظامها."²⁹، بما للبرودة من امتداد مناخي نفسي يجعلها تتفصل عاطفيًا عن المكان، كما أن "أكثر ما يزعجها في شيكاغو بُعد المسافات بين مكان وآخر..."³⁰ لكأنما تلك المسافات المتباعدة ما هي إلا المسافة بين " ليلي" والمدينة عينها.

²⁵المصدر نفسه، 103، 102.

²⁶تغريد عارف النجار، " لمن هذه الدمية؟"، ص 5.

²⁷محمود درويش، في حضرة الغياب، حمود درويش، في حضرة الغياب، دار الريس، بيروت، لبنان، ط1. 2006، ص359.

²⁸تغريد النجار، لمن هذه الدمية، ص 8.

²⁹المصدر السابق، ص5.

³⁰المصدر نفسه، ص9.

وعلى الرغم من اللقاء الذي جمع العائلة في زواج ابنتها إلا أن ليلي تمرر رسالة واقعية يعبر عنها وضع فلسطيني الشتات إذ مهما اجتمعوا إلا أن مآلهم إلى الفرقة من جديد، ف "هذا قدرنا نحن الفلسطينيين، تشننتنا في أنجاء العالم".³¹

للمكان في الرواية كذلك هوية اجتماعية وتراثية تسجله ليلي في صورة لعائلتها وترافقها معها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ومن خلالها تستبقي حضور المكان بامتدادها الشخصي فيه، وعن تلك الصورة قالت: "فكل عائلات يافا العريقة تفعل ذلك، المصور خليل رعد أفضل مصور في فلسطين".³²، ورصد المكان في صورة إنما هو توثيق أيضًا للحظة وفي ذلك تجميد مشهد وقتي يُجَدَل في ذلك المشهد الزمان والمكان والشخصيات.

المحور الثاني: الزمن

يُعد الزمن أحد الأسس التي ينهض عليها الخطاب الروائي في هذه الرواية كونه أحد مكونات البنية الفنية والنسيج الممتد والحاوي لكل التجربة الحياتية التي رصدتها النجار عبر أربعة أجيال متعاقبة ومتناثرة في آن، وهنا اتخذت النجار مسار الرواية العربية الحديثة في معظمها إذ لم ينتظم سردها ليؤثث لسيروية متوالية فالزمن لم يكن "قائماً على التسلسل المنطقي والتعاقبي كالرواية الكلاسيكية بل اتجهت الرواية إلى انحراف السير الزمني ولا يخضع بناء الحدث الروائي لمنطق السببية"³³، وبناء على ما سبق تم بناء الزمن في هذه الرواية بخلق مفارقة زمنية، فثمة زمن الشيء المروي وزمن الحكاية أي (زمن المدلول وزمن الدال) ... بل الأهم أنها تدعونا إلى ملاحظة أن إحدى وظائف الحكاية هي إدغام زمن في زمن آخر".³⁴

وهكذا، نمايز بين زمنين في هذه الرواية هما: الزمن الذي يعبر عن الأحداث المتواترة لنرى سيروية عامة تنطوي تحتها سيرة الجدة ليلي بعد طلب حفيدتها ندى لدمية تشه دمية الجدة، وهكذا فزمن القصة مرتبط بليلى في لحظتها الراهنة كجدة وأم ودكتورة وباحثة، ويعبر عن واقع حياة ليلي وابنتها شادية وحفيدتها أروى

³¹ المصدر نفسه، ص 173.

³² المصدر نفسه، ص 27.

³³ كبرى روشنكفر، فرشته آذرنا، الزمن الروائي في رواية "رماد الشرق" لواسيني الأعرج، مجلة إضاءات نقدية، السنة السابعة، العدد 25، آذار 2017، ص 9.

³⁴ نقلاً عن ليون ويستليه، ضد الهوية.

واستعراض الواقع بين زمن حاضر وأحداث يعيشها ثلاثة أجيال، حتى نصل إلى المشهد الختامي في الرواية بمرافقة أروى لجدها وفق امتداد مسار الحفيدة لمسيرة الجدة في عودتها إلى فلسطين وتحديدًا إلى يافا، حيث بيت أبي جدتها في مشهد مباشر يحمل رسالة مباشرة تؤكد الانتماء وتثبيت الهوية ووعيها ولعل اصطحاب الجدة ليلي لحفيدة في تلك الخاتمة الروائية التي تفتح بداية جديدة على الأمل وذلك " للتركيز على الوعي والإدراك في مسألة الهوية لأن العناصر والخصائص المعينة لا تصبح هوية معينة حتى يعينها الإنسان ويدركها، ويستخدمها للتعبير عن هويته...³⁵ ومن خلال ذلك الوعي الممتد للأجيال المنفصلة عن خارطة الفلسطينية يتم استرداد التاريخ بترجمة موقف العودة هذا وهو الحق الشرعي لأبناء الشعب الفلسطيني.

وافق زمن السرد اعتماد النجار تقنية الاسترجاع ومن خلاله كانت تستحضر الماضي كما نرى في استرجاع الذكريات لنشهد الطفلة ليلي وما تسبب به ذنب الاحتلال، الذي نهب الأرض والبيت وتفاصيل الحياة من استلاب لطفولتها، فتتعلق من الخاص للعام، فانتهاك الهوية الجمعية لحياة الفلسطينيين هي إحدى ممارسات الاحتلال من خلال انتزاع أهل الأرض من جغرافيتهم بتهجيرهم من الوطن قسراً لذا تصير الهوية مُهددة هنا بوصفها "حالة الكينونة المتطابقة بإحكام أو التماثلة حد التطابق أو التشابه المطلق وهنا تتعلق بالشيء المادي³⁶، وتم توثيق ذلك من خلال المذكرات التي تكشف فيها ليلي عن أحداث وقعت في زمن ماضٍ لا تنكره ولكنها تفقد من خلالها خصوصيتها، " كما أن كتابة المذكرات تتطلب صراحة وصدقاً مع النفس أولاً ومع المتلقي ثانياً...³⁷ إلا أنها تعرف أن لا شيء يثبت حقّها في تأكيد حقيقة انتمائها الأصل للوطن وترسيخ هويتها إلا بمشاركة " قصته الداخلية" و " أسرار وتفاصيل حياته" كما تقول الراوية العليمة في الرواية على لسان الجدة ليلي، وفي مقابل تقنية الاسترجاع تجلّى أيضاً الاستشراف أو ما يسمى بالاستباق لترسيخ العقيدة المتمسكة بالهوية والوطن على لسان الحفيدة أروى " نظرت أروى طويلاً إلى بيت أجدادها وقالت بتحدٍ: أرجو منك أن تؤكد لهما بلغتها أن الصغار لن ينسوا أبداً...أبداً...مهما طال الزمن.³⁸

³⁵ جبرار جنييت، خطاب الحكاية، زياد أبو لبن، <https://www.addustour.com/articles/456189>

³⁶ تد هونش رتش، دليل أكسفورد للفلسفة، ج2، تر: نجيب الحصادي، ط 1، المكتبة الوطنية للبحث والتطوير، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2005، ص 995، 996.

³⁷ المصدر السابق، ص 73.

³⁸ تغريد عارف النجار، " لمن هذه الدمية؟"، ص 202.

ترتبط الالتواءات الزمنية التي زخرت بها الرواية من تسريع أو إبطاء بأحداث تركز في سيرورتها على أمر مشترك ومتعلق بثيمة فقدان الوطن والمشاعر المتعلقة بذلك الفقد من حنين وأمل بالعودة، وبالرغم من التحديات المرتبطة بتلك الثيمة إلا أن النجّار تربط مفصل الأحداث بامتداد الهوية وسطوتها على كل محاولة ممكنة للانسلاخ عنها، فلا تترك للشخصيات أن تذوب تمامًا في واقع الاغتراب المحيط والمسيطر على المشهد العام، فليلى ناشطة في مجال حقوق الإنسان وتشارك؛ بفعاليات ذات علاقة، ووفق ما يخبر عنها السارد العليم فهي تتلقى دعوات من "ناشطين ينظمون مظاهرات في واشنطن احتجاجًا على تهديد التحالف بالهجوم على العراق، يدعونها فيها للمشاركة وإلقاء كلمة في ذلك الموقف.

وفي حوار يُعبر عن الفكر الواقعي البراغماتي المتأثر بالمجتمع الأمريكي المحيط والذي ينعكس على الممارسات الحياتية للجيل المعاصر من أبناء الفلسطينيين من الجيل الجديد تقول الحفيدة أروى لجديتها ليلي:

- "أنا يا نيتا ولدتُ هنا...في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا أعرف غيرها. نشأت هنا في هذا المجتمع ولا تهمني الثقافة الأخرى، والزيارات الخاطفة إلى رام الله لزيارة خالي نائل في العطل الصيفية لا تُحسب."

المحور الثالث: الثقافة

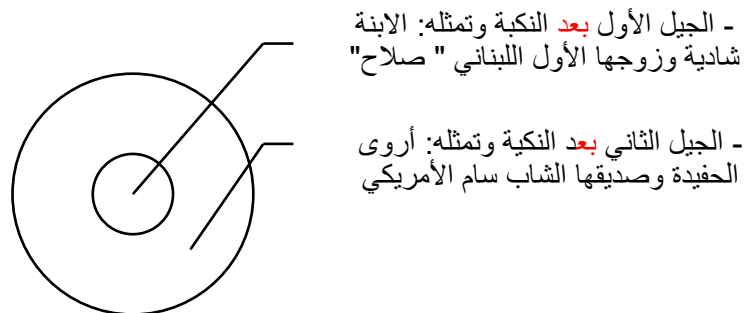
للأجداد إصرار على ترسيخ الهوية والانتماء للأحفاد وامتدادهم المنتسب للإنسان والمكان والتاريخ كذلك، تجيب الجدة ليلي حفيدتها بإصرار:

- "بل كوني فخورة بجذورك، واعلمي على أن ترفعي إلى الأعلى وتعطيك قاعدة صلبة في الحياة لتتقي عليها."

هذا النوع من الخطاب وإن كان يبدو مباشرًا وعظيًّا لكنه متناغم مع الإيديولوجيا التي حملتها الرواية في كل مفاصلها ابتداءً من الإهداء انتهاءً بالجملة الختامية التي أوقلت عليها الرواية وفتحت أبواب الأمل وجددت الصوت الوطني الحر.

الرد الذي توجهت به الجدة ليلي على حفيدتها أروى أعلاه إنما هو تصريح واقعي ينتشر كثيرًا في حوارات الأجيال التي عاصرت النكبة والنكسة والانتفاضتين وعند كل اغتيال لأحد الشخصيات الوطنية والرمزية الأدبية والفنية أو موتها يتجدد الصوت في كل بيت، صوت الدعوة لتجديد دماء الانتماء وهي الدعوة الصريحة والمباشرة للجيل الجديد للتمسك بالجذور التي تُروى من أمواه متنوعة بعيدًا عن ترربة الوطن، وأن حدث امتزاج ما كما في علاقة الابنة شادية مع رالف الأمريكي، إلا أن أمها ليلي تقيم العرس بملاحم فلسطينية، وتؤكد على انسجام العنصر الأجنبي بثقافة الفلسطيني، كأنما هي الثقافة الفلسطينية هي الأكبر والأشمل هنا

ما سبق في السلوك العام ما هو إلا نتاج الشعور بالتهديد المستمر، فالأقليات في مفهومها الديمغرافي والمجموعات المهددة ثقافيًا تتوجه إلى الحفاظ على هويتها حد التعصب أحيانًا خشية الانزلاق في دروب تميّع كينونتها في أكثر من جانب لنشهد هنا على مفارقة تنكشف في هذا السياق، إذ عادة ما يندمج الأقلية في الكل المجتمعي بينما نرى هنا عملية تأثرية جلية ، إذ يستجيب طرف الأكثرية لطرف الأقلية على الرغم من أن المتوقع أن يكون العكس إذ ذوبان الأقلية في الكيان الأكبر والأكثر سماكة هو الشائع، وهذا ما لا نجده في تشكيل الشخصية المحورية التي تتجسد في ليلي الطفلة/ الجدة والتي وسمتها النجّار لتعميق معاني الارتباط الهوياتي والتميّز المنفصل عن القطبين الأمريكي واللبناني ومن قبيل تعدد الملمح الهوياتي والذي لم يذب بتنوع العلاقات التي قد تتقاطع بها الشخصيات، وفي الاستقراء الآتي ننظر في بنية العلاقات المختلفة ثقافيًا وتحديدًا في العلاقة بين الرجل والمرأة:



وبالرغم من انفتاح الجيل الأول والثاني من فلسطينيي الشتات ممن وُلد خارج الوطن وترعرع في بلاد الاغتراب، على الاختلاط بهويات جديدة والاندماج مع ثقافات أخرى إلا أن ليلى تتأى عن ذلك في محاولات مستمرة في تثبيتها للوجود الفلسطيني خارج الوطن، إذ ترفض الذوبان في الهويات الحاضرة والمحيطية والتأكيد على أنها ذات ثقافة صلبة ونرى ذلك في تبنيها "خصوصية منسبغة على عناصر كثيرة تمارسها وتحضنها في الممارسات الاجتماعية للأقلية، ومن تلك العناصر الثقافية ما هو من التقاليد والعوائد، كهيئات اللباس، واللغة ولهجاتها، والسلوكيات العائلية، وطقوس الزواج، والاحتفالات الخاصة".³⁹

وفي هذا الصدد وبالرغم من أن الابنة شادية اندمجت بالزواج من بلاد الهجرة من خلال صلاح الذي قُتل أثناء الحرب الأهلية في لبنان، وبزواجها من بلاد الاغتراب حيث تتزوج من الأمريكي رالف، ومع ذلك فالجدة ليلى تشد ابنة شادية (الحفيدة أروى) ثانيةً نحو تذكيرها بأصولها الفلسطينية، فليس بالضرورة أن تتبع أروى منهج أمها شادية في ذلك، وفي الثوب الفلسطيني ترميز واضح للعراقة والأصالة والإرث الثقافي المعبر عن الخصوصية:

قالت شادية وهي تمسح دمعة من طرف عينها: " واو! ما هذا الثوب الرائع يا أمي! لم أركِ ترتدينه من قبل. "رَدّت ليلى: " لبسته عدة مرات في استقبالات رسمية في الجامعة. كنت أحتفظ به لمثل هذه المناسبة. إنه قديم جدًا. أهدتني إياه جدتك أم كمال لألبسه في حفلة الحناء قبل عرسي."

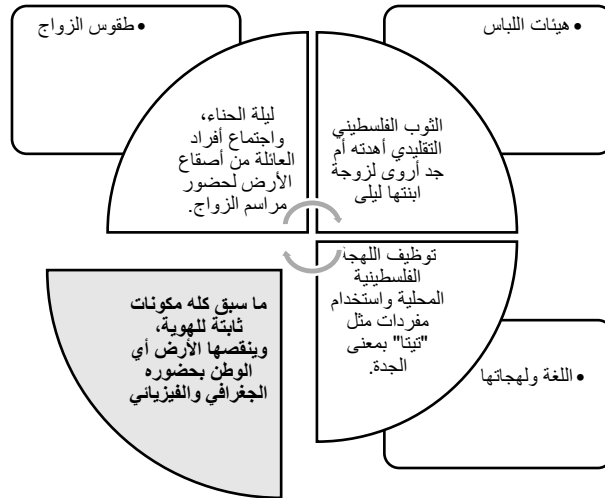
همست ليلى لأروى: " وهذا الثوب سيكون لك يا حبيبتي في المستقبل. " حضنت أروى جدتها وهي تقول: " يااي! أحبك يا تيتا!"⁴⁰

الحوار السابق يلخص الممارسات الاجتماعية التي تمارسها الأقلية وتتمظهر في المشهد المكثف الآتي وفق المكونات الثابتة للهوية⁴¹:

³⁹<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=187003&t=0>

خالد إبراهيم المحجوبي، العولمة وإشكالية الخصوصية الثقافية للأقليات.

⁴⁰ تغريد النجار، لمن هذه الدمية، ص 175



وفي تسليم الماضي للمستقبل كميراث مادي نرى الإرث المعنوي كذلك في عبارة الجدة للحفيدة المحملة بمضامين الهوية والانتماء لقضية التحرير للوطن: "وهذا الثوب سيكون لك يا حبيبتي في المستقبل"⁴²، وفي قبول الحفيدة أروى لذلك بفرح ما يعبر عن استعداد الجيل الجديد حمل القضية بحماسة، يزيد على ذلك ما يأتي لاحقاً باستمرار علاقتها وإنضاج ذلك التواصل بسعيد الفلسطيني وذلك ترميز واضح للوطن في شخصيته اسماً وانتماءً.

ذلك التمسك بتلابيب الانتماء والهوية التاريخية يظهر وضوحه من خلال ابتداع شخصية نوريث، المرأة اليهودية التي ظهرت كأحد محركات توسيع شخصية ليلي التي تعبر عن الطفلة التي كبرت ولم تستطع أن تنسى أو تتخلى عن جذورها الأصيلة وهويتها الثقافية والوطنية، فجاءت شخصية نوريث داخل المتن الحكائي كي تسلط الضوء على الحق المسلوب ليلي في مراحل حياتها منذ الطفولة بتركها للدمية على أمل سرعة العودة، وحتى وعيها الشخصي بفقدان الوطن والذود عن قضيته في تخصصها الأكاديمي ومشاركاتها التوعوية.

بالرغم من التواطؤ الذي تظهره النجّار في صياغة أفعال الشخصية بإيجابية إذ تقدّم لنوريث اليهودية شخصية لها هوية فردية منشقة عن التاريخ السياسي الصهيوني، تبرزت من أفعال بني جلدتها في

⁴¹ بديعة الهاشمي، الهوية الوطنية في قصص الأطفال، ص 24. تذهب بديعة الهاشمي إلى أن مكونات الهوية الثابتة " هي الدين، واللغة والأرض، والعادات والتقاليد، والموروث الثقافي والشعبي، والروابط الاجتماعية، وروابط الدم، وبعض أنماط العيش مثل الملبس والمأكل والمسكن والفنون الشعبية والمعمارية، والعادات المرتبطة بالمناسبات والأعياد."

⁴² تغريد النجار، لمن هذه الدمية، ص 175

فلسطين لتبدو شخصية وظيفية أكثر منها شخصية ديناميكية فاعلة، لقد كانت في تركيبها الفنية أقرب للمرأة التي تؤكد حق الآخر المتمثل في ليلى بالوجود، لذا جاءت أفعالها منعكسة عن شعور الندم والاعتذار عما فعله اليهود بالفلسطينيين، وتبرر في الرسالة التي أرسلتها ليلى: " لا توجد عندي كلمة تبرر كل ما يحدث وما زال يحدث حتى الآن، ولكن منذ أن كنت طفلة في نفس عمرك وأنا أشعر بفداحة ما قمنا به...نجوت أنا وأمي من المحرقة بأعجوبة... سمعنا عن سفن مستعدة لحملنا إلى البلاد التي قالو إنها موعودة لليهود... قيل لنا إنها أرض دون شعب... شعرت أننا نستحق أن يكون لنا ملجأ بعد هذا العذاب... كان سهلاً أن نتغاضى عن الواقع وألا نفكر بأننا نتسبب بنفس الفظائع التي حلت بنا لشعب آخر...⁴³

بدأت نوريت أقرب للشخصية الحكائية في الرواية بينما ظهرت ليلى شخصية واقعية، فنوريت شخصية جاهزة في بنائها لها دور مُصاغ فقط لتفعيل فكرة الصراع بين طرفين، لكنه صراع يؤول إلى مصالح ومعضلة وتتأغمق بتناول دبلوماسي دون مواجهات صريحة ولا نزاعات، تأخذ جانب الضحية وتتزعج إلى دعمها، وتقول نوريت في هذا الصدد: " مازلتُ ناشطة أعمل مع جهات مختلفة لمؤازرة الفلسطينيين".⁴⁴ كما يصنع تواجد اللحظة الفاصلة في الرواية والاعتراف المباشر بحق أصحاب الأرض بوطنهم عندما تقدم نوريت اليهودية للقاء ليلى الفلسطينية في آخر توقيع مذكراتها والتي صدرت مطبوعة وقد أرسلت مساعدتها ليحضر لها الدمية "سالي" من سيارتها لتتصور معها فأعطى المفتاح لشاب يعمل في المكتبة ليحضر الدمية سالي، ولما أحضرها يسأل: " عفواً... عفواً! لمن هذه الدمية؟"⁴⁵

ذلك المشهد البسيط في مكنونه اللغوي لكنه متعدد الشخوص في لحظة عجولة ومزدحمة ومكتفة في مكان ثقافي أي المكتبة، إنما هو مشهد رمزي بامتياز، فبسؤال مباشر متمم مع عنوان الرواية "لن هذه الدمية؟"، سالي الدمية هنا هي المعادل الموضوعي للوطن، بكل ما له من ارتباط وامتداد وانعكاس، من ضياع ووجود، من تيه وتلاقٍ، وفي إجابة نوريت اليهودية عن السؤال ما يؤكد حق الفلسطيني بالوطن

⁴³ تغريد النجار، لكن هذه الدمية؟ ص 124.⁴⁴ المصدر السابق، ص 128.⁴⁵ تغريد النجار، لمن هذه الدمية؟ ص 188.

والأرض والثقافة والتاريخ، " لوحث نوريت للشباب وأشارت إلى ليلي. أخذت ليلي الدمية منه وحضنتها بحنان وهي تقول: " هذه دمي، وستكون لحفيدتي من بعدي".⁴⁶ وإن استبدلنا الوطن بالدمية، فتكون العبارة كالآتي: هذه أرضي، وستكون لحفيدتي من بعدي.

هذا الحق تم توكيده أكثر عندما قالت نوريت: " عندي لك مفاجأة يا ليلي." ومدت يدها في حقيبتها الكبيرة وأخرجت منها كيساً بنياً أعطته ليلي. فتحت الكيس وأخرجت منه دفترًا قديمًا وصغيرًا. شهقت بصوت عالٍ وارتجفت يداها وهي تحمله وقالت: " إنه دفترتي! إنه دفتر مذكراتي! يا إلهي!" هزت نوريت رأسها بحزن رأسها بحزن ثم قالت: " لقد احتفظت به كل هذه السنين، وكأنني كنت على يقين أنني سأقابلك يومًا وسأعيده إليك".⁴⁷

مذكرات ليلي الطفلة تتوازي مع ليلي الجدة والأم والدكتورة والناشطة والمشردة، مذكرات الطفولة مقابل مذكرات النضوج، مذكرات الوطن مقابل مذكرات الغربة، توظيف هذه التقنية الفنية أعطى امتدادًا زمنيًا لحياة الفلسطيني ووجود الحاضر والماضي وبالضرورة المستقبلي أيضًا، فللمذكرات قدرة سردية على الإخبار عن المسكوت في الرواية، فالنَّجَار تضيف إثراء على حياة الشخصية اللصيقة لتغنيها بمحتوى يبوح بما تعمله دواخل النفس كما أن المذكرات يبدو كصوت موازٍ لديناميكية الشخصية النَّجَار والتي تستمر منذ نعومة أظفارها بالتعبير عن نفسها بما يعكس الوعي الذاتي لدى الشخصية لتتوقع المذكرات داخل النص فتوسع من بنية الحدث وتقرئ له أرضية تكشف أكثر عن تاريخ الثيمة الرئيسية والتي تقوم عليها الرواية بما يعبر عن أن الأجيال تدون وتحتفظ بتاريخها كما تعيش حاضرها، ومشاركة ليلفي توقيع مذكراتها، كجزء من الخطاب الروائي، للوصول إلى الإنسان الأمريكي المنساق خلق الميديا المسيطرة على فكره وسلوكه نحو قضية فلسطين بما يضع ليلي الطفلة/ الجدة بكل ما تحمله الشخصية من قضايا تحت ضوء الاعتراف بوجود معاناة الفلسطيني وسعيه لتوقيع تواجده وتثبيت حضوره الإنساني بكامل هويته، وضرورة استيعاب المجتمع الغربي ذلك كونه كان ومازال سبب من أسباب اللجوء الفلسطيني والتشرد عن الوطن، على أن تلك المذكرات تتحول إلى عمل فني في نهاية الرواية، أي من

⁴⁶المصدر السابق، ص 188.⁴⁷المصدر السابق، ص 189.

واقع ملموس إلى فكرة، وبالرغم من أن الفكرة أوسع من الواقع كونها مفهوماً شاملاً إنسانياً إلا أن الجملة الختامية على لسان الحفيدة أروى تؤكد أن الواقع والفكرة تؤام لا انفصام بينهما.

خاتمة

تشكل الهوية بكل أبعادها إطاراً للفرد ضمن السياقات الزمكانية، وتجمع تحت مظلتها شعوباً وقبائل، وفي حال تمييع ملامحها يفقد الإنسان جزءاً من وعيه الذاتي، وينسلخ من ارتباطاته الثقافية والاجتماعية، وقد كتب عدد من الكتّاب الفلسطينيين وغيرهم في قضايا الوطن والهوية والشتات، بأسلوب مباشر وآخر رمزي، وعلى الرغم من طرح موضوع النضال ضد المحتل والبطولات التي قام بها الإنسان الفلسطيني وهزائمه أيضاً كما في بعض أعمال غسان كنفاني، وجبرا إبراهيم جبرا وإميل حبيبي ورامي المدهون وغيرهم، وبعض من كُتّاب أدب الطفل على سبيل المثال لا الحصر الذين تعرّضوا للتحديات التي تواجه الفلسطيني وتصوير ذلك بأساليب متنوعة كما في كتاب فاطمة شرف الدين في كتابها "لو كنت طائراً"، أو في كتاب ريماء الكردي "على جناح البراق، رحلة عمر"، أو "طائر الأرجوان" لسمر البرغوتي، إلا أن رواية " لمن هذه الدمية؟" كانت رائدة على مستوى أدب الفتيان في تناول حقبة تسجيلية تاريخية ممتدة منذ النكبة حتى يومنا هذا في توثيق مثير لقضية فلسطين والهوية والانتماء بقلب فني وضمن خطاب روائي يتضمن عدداً من أساليب السرد التي تثير مفاسل الأحداث التاريخية والمعاصرة على حد سواء من خلال ثنائية الجدة/ الحفيدة.

استطاعت تغريد عارف النجار ومن خلال صورة عائلية حقيقية لعائلة والدتها كما ذكرت في آخر الكتاب أن تؤكد على أن شخوص روايتها "يقدمون تصوّراً عن قضايا المجتمع والحياة المتلازمة، أي أن تقول/ تحكي تكتب الحياة في فوضاها وفورتها وغضاضتها..."⁴⁸ في سعيها الحثيث للتمسك عدم التفريط بالهوية والوجود الفلسطيني في البلاد وفي الشتات.

⁴⁸المذكرات الموازية التخيلية في الرواية المغاربية، محمد برادة خطاب جديد، تجريب متجدد، د. عبد الحق بلعابد، جامعة الجزائر. www.academian.edu

المصادر

تغريد النجار، لمن هذه الدمية؟ دار السلوى للدراسات والنشر، الأردن، 2019.

المراجع

1. ابن منظور، لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف خياط مرعشلي، مجلد 1، ط1، دار لسان العرب، بيروت 1970.
2. بدعة خليل الهاشمي، الهوية الوطنية في قصص الأطفال في دولة الإمارات العربية المتحدة، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2014.
3. تد هونش رتش، دليل أكسفورد للفلسفة، ج 2، تر: نجيب الحصادي، ط 1، المكتبة الوطنية للبحث والتطوير، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2005.
4. جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج 2، دار الكتاب اللبناني، 1982.
5. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان 1403 هـ - 1983 م.
6. علي عبد المعطي، قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، ج2، دار المعرفة، الإسكندرية، مصر، د.ت.
7. كبرى روشنكفر، فرشته آذرنيا، الزمن الروائي في رواية " رماد الشرق " لواسيني الأعرج، مجلة إضاءات نقدية، السنة السابعة، العدد 25، آذار 2017.
8. محمود درويش، في حضرة الغياب، دار الريس، بيروت، لبنان، ط1. 2006.
9. نجيب الكيلاني، أدب الأطفال في ضوء الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 3، 1991.

المواقع الإلكترونية

10. <https://www.politics-dz.com/>
- الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية، مفاهيم سياسية: تطور مفهوم الهوية، ج1.
11. <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=187003&r=01>
- خالد إبراهيم المحجوبي، العولمة وإشكالية الخصوصية الثقافية للأقليات.
12. Leon Wieseltier, Against Identity. November 27, 1994 10. <https://newrepublic.com/article/92857/against-identity>,
13. المذكرات الموازية التخيلية في الرواية المغاربية، محمد برادة خطاب جديد، تجريب متجدد، د. عبد الحق بلعابد، جامعة الجزائر. www.academian.edu
14. فاطمة أنور اللواتي، قراءة في رواية: لمن هذه الدمية، دمية وثقافتان الفلسطينية واليهودية. <https://www.raialyoum.com/>